شجاعة اللغة العربية في مواجهة الزعيق الحضاري

الأستاذ : الخـــثـــــير داودي
المركز الجامعي ميلة – الجزائر

الملخّص:

تتغيّا هذه الورقة البحثية تبيان مراحل محن اللغة العربية التي مرّت عليها عبر التاريخ، وخاصة محنة الدعوة إلى العامية أن تكون بديلا منهجيا للفصحى، ودعوة الحرف اللاتيني أن تكون بديلا لرسم الحرف العربي، ثم تبيان حالة العربية بعد النصف الثاني من القرن العشرين في مواجهة تحديات العولمة المتغوّلة بوسائلها التكنولجية وأذرعها السياسية والإقتصادية وغير ذلك، ثم ذكر شهادات وتنبؤات لعلماء أجانب حول مصير العربية، ثم ذكر أبرز مواطن قوة اللغة العربية ما يجعلها تستمرّ وتواصل ما إن تمسّك به العرب والمسلمون.

Résumé:

Le but de cet article montre les étapes des différentes anomalies de la langue arabe, qui ce sont passés à travers l'histoire, et une invitation spéciale à la situation de la langue vernaculaire à se substituer à un classique systématique, et inviter l'alphabet latin pour être un substitut à attirer l'écriture arabe, ensuite, indiquer l'état de la langue arabe après la deuxième moitié du 20^{e} siècle face aux défis de la mondialisation et de divers moyens, ensuite, il a été mentionné les certificats scientifiques occidentaux sur le sort de l'arabe, puis un soulignement des points forts de la langue arabe ce qui le rend dernier.

- **تمهيد: حالة العربية في النصف الأوّل من القرن العشرين.**

لقد أدرك الباحثون المختصّون الغرب في بدايات عصر نهضتهم الحديثة أن اللغة العربية ضرّة حقيقية للغاتهم التي يتكلّمونها، وإن اهتم بها العرب فسيسودوا ويبلغوا الغاية التي يأمّون إليها، وذلك أنهم لمّا اطّلعوا على التراث العربي، أدهشتهم معارفه وعلومه وفنونه المبتكرة التي يحويها، فإن اهتم به العرب فسيتخطّون به الزمان والمكان ويصنعون به حضارة عربية إسلامية جديدة، تليق بدستور حياتهم، فتوجّسوا من هذا خوفا من ردّة فعل من العرب والمسلمين، تكون جزاءً وفاقا لحضارتهم، ولهذا عدّوا وخططوا لضرب العربية بالدعوة إلى العامية أن تكون بديلا للفصحى والحرف اللاتيني بديلا للحرف العربي.

ولقد كانت أصعب محنة تفكيكية مرّت بها اللغة العربية، رجّت من ثوابتها وهزّت من حصونها، حتى كادت أن تنحلّ كل أوصالها وروابطها ما بين علومها، منذ عهد أبينا اسماعيل عليه السلام كأوّل نبي تكلّم بها إلهاما من الله سبحانه وتعالى، إلى يوم الناس هذا! كانت بين دعاة العاميّة ودعاة الحرف اللاتيني.

لقد كان روّاد هذا المشروع الفكري اللغوي الهدّام المسلوخ من الوثنية المسيحية الأوربية، جماعة من المستشرقين الحاقدين على العربية والإسلام، منهم الرائد الأول ولهلم سبيتا الألماني في كتابه: "قواعد العربية في مصر"، الذي نشره سنة (1880)، ثم تلاه كارل فولرس في كتابه:"اللهجة العربية في مصر" الذي نشره سنة

(1890)، ثم تلاه سلدن ولمور في كتابه:"العربية المحكية في مصر"، الذي نشره سنة (1901)، ثم تلاه فيلوت وباول في كتابيهما:"المقتضب في عربية مصر"، نشراه سنة (1926)، وغيرهم كثير.[1]

وهذه الكتب الأربعة غزوا بها العربية، وفعلت فعلتها النكراء في اللغة، وهي أفكار أنضجتها نار التفكير والروّية والتمهّل من مدرسة الاستشراق لضرب أقوى رابط يجمع العرب والمسلمين موحّدين متفقين. ولقد كانت ضربات موحشة بمثابة القنابل، كيف وقد أتت هاتان الدعوتان أكلها عند المفكرين واللغويين العرب، لأنهم نهلوا منها وعبّوا من حيث يدرون، وربما لا يدرون لحقيقة أغراض هاتين الدعوتين الواردتين فبئس الورد المورود!

ولأنه ليكاد يظنّ الظانّ آنذاك أن العربية قد أزفت ساعتها ودنا أجلها، عندما نجد أبنائها، يساهون في هدمها باسم الإصلاح وقلوبهم غلف عن مطامح هذه الدعوة عند أصحابها الأوّل من المستشرقين الحاقدين، بحيث نجد أمثال:رفاعة الطهطاوي –وهو الذي يعدّونه رائد النهضة العربية الحديثة– يحقّق ما أراده له المهندس الفرنسي"المسيو جومار"، والمستشرق الفرنسي "سلفستر دي ساسي".[2] فيدعو إلى العامية في كتابه:"أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل"، الذي نشره سنة (1868)، وهو من الذين لا يدرون. أما سلامة موسى المفكّر المرتزق الكبير، في كتابيه–البلاغة العصرية واللغة العربية، الذي نشره سنة (1945). والأدب للشعب، الذي نشره سنة (1956)، صاحب دعوة صارخة لنبذ الفصحى بالجملة، ولويس عوض: نسخة منقّحة عنه، الذي أفتى بجواز ترجمة القرآن الكريم إلى العاميّة، وغيرهم كثير عددهم.

وهذه الدعوة إلى العامية التي لقت قبولا في ساحات العرب، كانت ترافدها دعوة الحرف اللاتيني أن يكون بديلا للحرف العربي بئس الرفد المرفود، وكذلك لقت تجاوبا عند أبرز الأساتذة الجامعيين المجمعيين العرب: منهم أحمد لطفي السيّد، والمقالات السبع، نشرها في صحيفته "الجريدة"، أفريل، وماي، سنة (1913). ومنهم اقتراح عبد العزيز فهمي باشا، في بحثه الموسوم بـ:–"استبدال الحروف اللاتنية بالحروف العربية"، قدمه إلى المجمع بالقاهرة سنة (1943). ومنهم حتى اللغوي الكبير علي الجارم، واقتراح شكلات جديدة للدلالة على الحركات، نشر بحثه سنة(1944). ومنهم المفكر الموسوعي أحمد أمين بحثه الموسوم بـ:–"اقتراح ببعض الاصلاح في متن اللغة"، مقال، نشره سنة (1951)." [3] ولقد انجرف في دعوة الحرف اللاتيني حتى "تمام حسان في كتابه: "اللغة العربية بين المعيارية والوصفية"، الذي نشره سنة (1958).

وكل هذه الآراء والأشتات مجتمعة في كتاب الدكتورة نفوسة زكريا "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر"، الذي نشرته سنة (1964). ولقد قال فيه الأستاذ الكبير أبو فهر محمود محمد شاكر كلمة عجيبة، سنثبتها كاملة لأهميتها في طرحنا هذا، فقال:" ولا أظنني قرأت في هذا الدهر كتابا، ينبغي لكل عربي وكل مسلم أن يقرأه من ألفه إلى يائه، يضارع هذا الكتاب. وحسبها أنها استطاعت أن تجلو للناس صورة صحيحة صادقة مؤيدة بالأسانيد، بلا تزيّد ولا كذب ولا ادّعاء، عن أكبر معركة تدور في العالم العربي والإسلامي، وهي معركة البناء أو الهدم، معركة الحياة أو الموت، معركة الحرية أو الاستعباد، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية واحدة هي الفصحى، أو تفرّق العرب والمسلمين أشتاتا بلغات متنابذة هي العامية. ولو كان لي من الأمر شيء، لأمرت أن يطبع هذا الكتاب ليكون في يد كل شابّ وشابة، وكل رجل وامرأة، ويكون له مختصرا ميسّر لكل من مكنه الله من القرءاة."[4]

لقد نجح المستشرقون الحاقدون من الألمان والإنجليز والفرنسيين في التخطيط لهذه الدعوة وزرع الألغام الفكرية التشكيكية حول قضية الفصحى، تحت ستار التجديد والعصرنة، فهفا بعض أبرز اللسانيين العرب إلى هذا الجديد، فمنهم انساق انسياقا لا رجعة فيه، ومنهم من تراجع بعد انسياقه، وثاب إلى رشده، وفطن لهذه المكيدة اللغوية، ومنهم من كان بين ذلك وسطا وهم أكثرهم.

ومهما يكن؛ فقد كانت فتنة رجّافة استقطبت حولها أكبر عدد ممكن من الباحثين العرب، طاشت فيها سهامهم، وكثر فيها التثالب والتلاوم، وأصبح النحو الذي هو قانون العربية لا يقع موقعا حسنا في نفوس وأرواح الباحثين، وكادت أن تصير الفصحى غريبة الوجه واللسان بين أهلها وذويها.

وفي رأيي ليس العجب كيف لقت هاتان الدعوتان تجاوبا عند البحّاثة العرب وطريقا لتقليل من قيمة هويتهم اللغوية، وإنما العجب فيمن أنكرها وحاربها وهي في مهدها، وأدرك أنها معركة الحياة أو الموت، لأن هذه الدعوة إلى العامية والحرف اللاتيني كانت لها نظريات محكمة في الخفاء والتستر والتمويه، ودخلت إلى العرب باسم التجديد والإصلاح والعصرنة، وهذا هو الذي دلّس وجه الحقيقة، ولو ابتليت لغة أخرى من اللغات بهذا الابتلاء غير العربية لصارت أثرا دارسا بعد عين.

ولقد عُرِفَت في هذا الميدان شخصية كبيرة؛ وهو الأستاذ الكبير أبو فهر محمود محمد شاكر، الذي نازل أصحابها وكشف مخبوءات أفكارها الفتّاكة ومستودعات ضمائر أصحابها المسخومة بالحقد، في كتابه النفيس "أباطيل وأسمار"، وهو عنوان مستوحى من بيتين لشيخ المعرّة الذين أثبتهما على واجهة الكتاب، وهما:

هل صحّ قولٌ من الحاكي فنقبلَه***أم كُلُّ ذَاكَ أَبَاطِيلٌ وأَسْمَارُ

أمَّا الـعقولُ فآلتْ أنّهُ كَـذِبٌ***والعقلُ غَرْسٌ لَهُ بالصدقِ إِثْمَارُ

- **لمحة خاطفة عن حالة العربية قبل محنة هاتين الدعوتين:**

ولعل في هذا الكلام الذي سبق، تلخيص لأصعب محنة مرّت عليها العربية في بداية القرن العشرين، ولا تقارن بالمحن التي مرّت عليها في التاريخ بدءً من قطرب (ت:206هـ) الذي خالف جميع أئمة العربية في إنكاره نظرية العامل والإعراب ورأى أن الحركات كانت بأثر صوتي جيء بها لتخفف من الثقل الناشئ من إسكان الحروف."[5] وإن كان منه اجتهاد لكنه اجتهاد مضادّ لناموس العربية، ولا يخدم الفصحى، ولقد ردّ عليه جمهرة من النحاة.

ثم محنة الشعوبية التي ازدرت فصاحة العرب وبلاغتهم، وبسببهم ألف الجاحظ البيان والتبيين ردا عليهم، وتفنيدا لمزاعمهم، وبعدها ظهرت طائفة من أتباع القاضي عبد الجبار (ت:415هـ) صاحب كتاب "المغني" هوّنت من شأن علم النحو والشعر، وقد جهد عبد القاهر الجرجاني (ت:471هـ) بحميّة جارفة على حياة اللغة والنحو، فرد عليهم في خطبة كتابه "دلائل الإعجاز".[6] ولقد كان لهذه الطائفة امتداد لعهد الزمخشري (ت:538هـ) فلقد فقد لمّح لهم في خطبة كتابه "المفصل". إلا جاء رجل من المغرب من عمد دولة الموحدين، وهو ابن مضّاء اللخمي القرطبي (ت:592هـ) صاحب كتاب "الردّ على النحاة" يهدم الأصول التي قام عليها النحو في المشرق، وهي امتداد لثورة ابن حزم الظاهري في الفقه.

وهل انتهت الأمر عند هذا الرجل، بل زادت المحنة اتّقادا، وذلك أن ابن منظور (ت: 711هـ) ذكر لنا هذا الفساد اللغوي الذي بسببه ألّف سفره الجليل "لسان العرب" لحفظ اللغة من الضياع والتلف، يقول في خطبة كتابه:"صار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس في الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب، في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون."[7]

وكل هذه الفتن والكروب التي مرّت عليها العربية عبر تاريخها، لم تكن جميها بحجم الدعوة إلى العامية والحرف اللاتيني. لأن هذه الأخيرة كانت في الحقيقة صراعا فكريا رهيبا بين حضارتين مختلفتين، ولم تكن بين أهلها فحسب، والذي زاد في ضريم هذه المحنة ووقدتها بعض أهلها و"هم رجال منّا، من بني جلدتنا، من أنفسنا، ينطقون بلساننا، وينظرون بأعيننا، ويسيرون بيننا آمنين، بميثاق الأخوة في الأرض، أو في الدين، أو في اللغة، أو في الجنس."[8]

وهم قوم غير أوفياء غذوا بدرّها وشبّوا وكبروا على عاتقها، فلما اشتدّ عصب لسانهم واستحكمت مفاصل عقولهم، رموها بحالقات من الأوصاف في أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها وفي علمائها، من التهم والشكوك والقصور، إيعازا من الأجانب الذين أسسوا لهذه الدعوة.

غير أن العربية أثبتت جدارتها وقوتها من خلال هذا الابتلاء، ولم يحدث لها أي نزيف داخلي في علومها، وسلمت من شرورهم، ولم يتحقق لهم ما تمنّوه من مطامح، لأنها دعوة مهزوزة ومجذوذة عن الثوابت والأصول، وغير موضوعية، بنيت على وساوس وهواجس أفكار بعض المستشرقين المسيّرين من قادتهم وحكامهم.

- **<u>حالة العربية بعد النصف الثاني من ق 20 في مواجهة حضارة الإلكترون:</u>**

أما اللغة العربيّة ما بعد محنة هاتين الدعوتين؛ واللتان فشلتا فشلا ذريعا، فإن العربية بعد النصف الثاني من القرن العشرين تواجه زعيقا ونفيرا وزمهريرا من عالم التكنولوجيا والمخترعات، فهي في عصر تماهت فيه الموائز والخصوصيات، وتحطّمت فيه الحدود، و"تكسّرت فيه القيود، وهدمت فيه السدود بين اللغات الحديثة، ولم تصبح اللغات وسيلة للتبليغ والتواصل فحسب، وإنما أصبحت القوة الفاعلة، فهي أقوى وأعتى من المفاعيل النووية والقنابل الذريّة الذي تسابق الأقوياء في نشر لغاتهم عبر المراكز الثقافية أولا، والأنترنت ثانيا ليصلوا إلى العولمة التي يرمون من ورائها إلى الهيمنة التامّة على الإنسانية جمعاء في لغتها وفكرها ومصطلحاتها ومخترعاتها."[9]

وخاصة عالم الانترنت الذى زوى العالم في صفحاته واخترق الحجب، واختزل الأزمنة والأمكنة، وهو عالم سيطرت عليه اللغة الإنجليزية سيطرة تكاد تكون شبه تامّة، فثورة الاكتشافات والاختراعات التي تكاد تكون في كل ساعة فهي باللغات الأجنبية عدا العربية. فأين إذن؛ موقع العربية من هذا العالم المتغوّل وما مصيرها؟

معلوم أنه قد "أصبحت ظاهرة موت اللغات عنوانا يوميا كسائر عناوين العولمة. واستفاضت في هذا الشأن تقديرات إحصائية عامة متفاوتة ونبوءات، منها أن عدد لغات العالم اليوم زهاء 6800، وأن 50%، إلى

90%، من هذه اللغات ستختفي مع نهاية القرن 21."[10] فمنظمة اليونسكو مثلا ترى أن اللغة العربية في طليعة اللغات القومية المهددة بالانقراض والموت، فكيف يكون هناك مستقبل للعربية في ظل جملة من التحديات من عقبة الازدواجية والثنائية، وعقبة الترجمة، وتحديات عالم الاقتصاد، وعالم الإعلام، وخاصة تحديات العولمة التي شبهها الدكتور نهاد الموسى "بليل النابغة عندما قال في النعمان عندما توعّده:

فإنّك كاللّيل الذي هو مدركي***وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك وَاسِعُ

وقد كثر الكلام فيها، فمنهم من يراها ظاهرة لا نملك إلا نعيش بين ظهرانيها، ومنهم من يرى أنها مرادف الأمركة باعتبارها القوة المتفرّدة بالهيمنة على العالم في كل مجالات الحياة."[11]

فأنّى للعربية السلوى والطمأنينة وقد أقصيت من التحديث والعصرنة، وهذه الإنجليزية لغة العلم والتكنولوجيا والحاسوب، وقد هيّأت لها الأنترنت أن تنتشر وتشيع بمعجم مشترك يشبه أن يكون كونيّا، معجم نجده في العربية كما نجده في كثير من اللغات الأروبية والآسيوية والإفريقية وهو معجم يبدأ برموز الحياة اليومية الأولية في التحية Hi، والشكر Thank you، والوداع Bye، والموافقة Ok...الخ، وتنازع الناطقون باللغات المختلفة في أمرها بين متقبّل ورافض وغير آبه، ولكن الأمر فوق إرادتهم جميعا، أما في العربية فقد استوطنت كثير من المشتقات، وأصبحوا يقولون مسّج من message بدل أرسل، وسيّف من save بدل أحفظ، وهكذا..."[12] فإذا سمحنا لهذه المفرادات الدخيلة أن تسري بيننا وتدلّك على ألسنتنا، فإنه سيحل محل الأصيل، الكلام الخليط والهجين الذي امتلئت به شوارع العالم العربي وأصبح هو العملة المتداولة على الألسنة.

إذن؛ "فالعربية في خطر داهم جزء يسير من الحقيقة المفزعة الكبرى، ولكنه الجزء المهدد الذي ينهار البناء كله بانهياره فإذا انهار، أصبح الحاضر كله والمستقبل كله، ركاما وأطلالا وملاعب يستبيحها من يشاء وكما يشاء."[13] لأن هناك أيادي خفيّة لا تظهر تحاول سحق اللسان العربي وطمس الهوّية عن طريق وسائل الإعلام المعولمة التي تروّج للهويات الأمريكية والأوروبية بالفكر المعلّب إلى الشرق، لخطف عقول شباب العرب وألسنتهم، والشباب هم الثروة الحقيقية للبلاد والموارد الغالية للعباد.

فاللغة جزء من الذات الإنسانية وجزء من الفكر، فإذا لم تحرس هذه الوسيلة من خطر إعصار العولمة فإنّها ستبضّع هوية الشخصية العربية والإسلامية بين أنيابها ومخالبها المكشّرة في جميع اتجاهات الحياة ومرافقها، وهذا هو التجانف بعينه للإنتحار اللغوي، والتمدّن الممسوخ، وكما يقول عباس محمود العقاد:"من واجب القارئ العربي إلى جانب غيرته على لغته أن يذكر أنه لا يطالب بحماية لسانه ولا مزيد على ذلك، لكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال، وأن بيت القصيد هنا أهم من القصيد كله... لأن السهم في هذه الرمية يسدد إلى القلب ولا يقف عند الفم واللسان، وما ينطقان به من كلام منظوم أو منثور."[14]

فالشعور بالمشكلة تجاه العربية واجب على كل عربي ومسلم وليس الباحثين فحسب، فالمسؤلية هنا تقع على عاتق الجميع، فاللغة هي سفينتنا التي نحن مستهمون فيها جميعا، ولا يمكن لأحد منّا أن يستهين بأمرها، وإلا فهو الغرق والتماهي في لغات الغير ميوعة وتفسّخا، نتسقّط الحضارات الأخرى في لغاتها وسائر أساليب حياتها. حينها يكون بطن الأرض خير لنا من ظاهرها، من أن نصل إلى الدرك الأسفل من اللاوعي اللغوي.

يقول أبو فهر محمود محمد شاكر:"اللغة ليست علما بل هي شيء فوق العلم."[15] والشيء الذي فوق العلم في نظري هو العقيدة والوطن، إذن؛ فاللغة عقيدة ووطن، أما أنّها عقيدة لأنه لا إسلام ولا دين ولا عروبة إلا بالعربية، أما أنها وطن فلأنها مستقرّ الإنسان العربي على وجه الأرض يؤوي إليه. فما معنى للإنسان من دون لغة؛ ولو عاش الإنسان بلا لغة لتبرّمت منه حواسه الست تبرّم الظلماء من النور والظلّ من الحرور.

أمثلة عن نفوذ العربية وشجاعتها:

ومهما يكن؛ فإن أثبتنا واقع التحديات التي تحاول تحجيم وتهميش اللغة العربية، فإن هذه الأخيرة تعتلج وتغالب هذه التحديات، حتى أثبتت نفوذها وأثرها في اللغات، يقول مدير المعهد الثقافي الإسباني، بكتور غارسي دي لكونتشا:"إن عشرة آلاف كلمة من أصل عربي توجد باللغة الإسبانية تم تضمينها كلها في قاموس الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية. وهذا التواجد الكثيف للكلمات العربية في اللغة الإسبانية يقابله تأثير ضعيف للغة الإسبانية على العربية حيث نجد فقط بعض الكلمات من أصل إسباني في لغة الضاد."[16] وهذا التأثير القوي من العربية على الإسبانية يدل على قوة بنيتها وشجاعة كلماتها.

ولقد يكون مجزئا في البرهنة على هذا، السَّبَقَة العلمية التي تريد اللسانيات الإدراكية تحقيقها وهي إقامة "نحو كليّ" يصف جميع ألسنة البشر، وهذا الكشف العلمي الذي يطمح البحث اللساني المعاصر إلى تحقيقه لم يجد السبيل إلا عن طريق تجربة العقل البشري الذي يتكلم باللغة العربية فحسب، يقول الدكتور عبد السلام المسدي:"إن علم اللسانيات (...) يمر بلحظة معرفية حرجة، ذلك أنه يبحث عن أنموذج من الألسنة الطبيعية يُمدّه بما لا تستطيع اللغات العالمية السائدة الآن أن تمدّه على الوجه الأكمل. وإننا لعلى يقين جازم بأن اللغة العربية مؤهلة تمام التأهيل للاضطلاع بهذه المهمة العلمية الدقيقة: فهي أولا لغة إعرابية (...) والسبب الثاني هو أن اللغة العربية لغة اشتقاقية تعتمد الحركة الذاتية في توليد الألفاظ بعضها من بعض، (...) والدعامة الثالثة تتمثل في أن العربية هي من أقدم اللغات التي حافظت على بنيتها التاريخية التامة، (...) والسند الرابع هو أن اللغة العربية وصلتنا معزّزة بعلوم غزيرة طوّقت بها فألمّت بمنتهى أسرارها وكانت من ضروب العلم الخالص الذي قد استوفى أشراط المنهج الموضوعي الشامل (...) ثم إن اللغة العربية هي لغة حيّة متداولة (...) ولسنا بمجازفين لو زعمنا أن أكبر فريضة تقع على عاتق أبناء لغة الضاد من هنا فصاعدا إنما هي استثمار تجربة الإنسان العربي مع لغته في أتمّ أشراط الإفصاح بها كي نقدّم للمعرفة الإنسانية زادا سخيّا يكون الأنموذج الأوفى للسانيات الإدراكية."[17]

وهذا الإرهاص هو من المبشّرات في نجاح اللغة العربية مستقبلا، من منظور الدرس اللساني الحديث، بحيث أنه جرّب كل لغات الدنيا واحدة واحدة، فلم تُحقق له كبير نهضة، مقارنة بالخدمات البحثية العلمية المخبرية التي قدّمهت لها. بقيت الآن العربية يعطى لها فرصة بأن تثبت ريادتها لهذه المهمة العلمية العالمية، وذلك بأن تكون لغة الكشف العلمي والتواصل الحضاري، ولما لا أن تكون لغة الانترنيت والتكنولوجيا لحلّ المشاكل الإنسانية!؟

رغم أنّ أغلب اللسانيين البحاثة العرب دقّوا ناقوس الخطر لتدارك العربية قبل أن تصير إلى ما صارت إليه بعض اللغات من الانقراض. من بينهم إدريس مقبول من المغرب في بحثه، الموسوم بـ: "من الحرب على

اللغة إلى الحرب على الهوية"، وعبد المالك مرتاض من الجزائر، دقّ ناقوس الخطر في حوار له بعنوان:"واقع اللغة العربية في العالم العربي"، وعبد السلام المسدّي في كتابه القيّم "العرب والانتحار اللغوي"، وغيرهم كثر.

ورغم واقع العربية في ظلّ تحدّي الزعيق الحضاري بمبهراته الفضائية، ومغرياته التكنولوجية، وشطب الأحداث العالمية اليومية، وتغلّب النفوذ الغربي إقتصاديا وسياسيا وثقافيا، ورغم اعوجاج المنظومات التعليمية التي رعيت في غياب أولي الاختصاص ذوي الفحص العلمي، إلى غير ذلك من المقلقات والمفزعات. فلن يؤثر هذا على صلاحية العربية للبقاء والخلود والاستمرار مادام أن حبلها متصل غير مجذوذ بحياة الآخرة.

من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة، كما يقول أبو فهر: التي "كادت تكون واقعة، ثم حالت بينها الحوائل، ولماذا ينكرها المرء إلا من حبّ العجز واطّراح الهمّة ؟ وأسألك: هل كان إنجليزي واحد في القرن السابع عشر، يخطر بباله أن لغته سوف تكون لغة عالمية تطبّق ما بين مشارق الأرض ومغاربها؟ كلّا بلا ريب، فما الذي جعل هذا ممكننا للإنجليزي بلا تراث إلا طغيان الغلبة والسيطرة، وجعله غير ممكن لي، وأنا أملك ما هو أفعل من الغلبة والسيطرة، وهو دين الله الذي يتساوى في حمل كتابه والقيام بلغته العربي وغير العربي؟"[18]

إذن؛ فسند هذا التنبؤ هو من مشكاة القرآن الكريم، فمادام أنه أرسى للعربية معالمها وأرسى تراثها على مدّ البصر في التاريخ، قادر أن يُورّثها الأجيال اللاحقة المتقادمة كما ورّثها لنا اليوم منذ أربعة عشر قرنا، ومهما استفضنا في تعداد مزايا العربية فلن نبلغ، "وهل يغني القول إن العربية تنفرد بين لغات العالم بأنها لغة الوحيدة التي امتدت لها الحياة في التاريخ المدوّن والتآليف المتصلة والشواهد الماثلة والتداول الحي ستة عشر قرنا؟ وهل يغني القول إن من يعرف العربية يمتلك القدرة على قراءة كتاب الزمان العربي الإسلامي الممتد من الجاهلية إلى يومنا هذا؟ وهل يغني القول إن العربية ورثت علوم الأوائل وأضافت إليها؟ وهل يغني القول إن العربية تفتح لأبنائها ديوان العرب والنص القرآني المقدس وفطن الجاحظ واكتشافات ابن خلدون وأنظار ابن رشد."[19] ومهما قلنا فيها فلن نبلغ في تعداد مزاياها وفضائلها، والأمثلة والنماذج التي تدل على شجاعة العربية أكثر من أن تحصر، وهي مبثوثة في كتب فقه اللغة والمعاجم، وخاصة كتاب الخصائص لابن جنّي.

شهادات بعض الأجانب على ثبوتية العربية واستمرارها:

أما إذا جئنا إلى شهادات الأجانب وخاصة المستشرقين الموضوعيين، وهم غير ملزمين بإدلاء اعترافتهم، والحق ما شهدت به الأعداء كما يقال، "جون فرن واحد من الأوروبيين، من غير أبناء العربية، يكتب قصة خيالية، بناها على سُيّاحٍ يخترقون طبقات الكرة الأرضية، حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض، بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية، قال:"إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حية حتى يرتفع القرآن نفسه." [20]

وهذه شهادة أخرى؛ ذلك أن **فيلسوفا ألمانيا** أوصى يوما تلاميذه فقال: "إذا أردتم أن تكتبوا فكرا تأمنون عليه كرور الأجيال فاكتبوه بالعربية، فإن لها دون غيرها من اللغات مزية." فقالوا وما مزيتها؟ فقال:"لأن في العالم أمة عظيمة العدد، ترى من أصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى (القرآن) ولا شك في بقاء الأديان في

الأمم العظيمة الشأن، وحينئذ فلا ريب أنّ هذا الكتاب يبقى ما بقي هذا الدين، وأن العربية تبقى ما بقي هذا الكتاب." [21]

فمن الذي ألزم هذا الأجنبي الذي لا يمتّ لا للعربية ولا إلى الإسلام، ومع ذلك لم يكتمها في قلبه، وترك كلمته للتاريخ هو الذي يحكم عليها بالإيجاب أو السلب. ما دام أن للتاريخ دورة تعاقبية ذهاباً وإياباً، ألا يكون هذا داعيا للتفائل لمستقبل العربية. فإذا كُتب للعربية الغلبة هذه المرّة، فسوف تبلغ نقطة الوصول وهي السيطرة التامّة، بأن تكون لغة اللسان البشري العام ولغة الجهاز الآلي وسوف يكون لها حظ من الانترنت، ولسوف تبلغ ما بلغ الليل والنهار، مادام أنّ:"حفظ الذكر بالعهد الإلهي يمثّل ضمانا لبقاء العربية في المشهد الإنساني على الرغم من كل ما يتجاذبها في دورة الصراع ونواميس التطور."[22]

أبرز موطن قوّة للعربية:

إذن؛ فمصدر قوة العربية الأولى هي القرآن الكريم، وإن أردنا نهضة لها فلابد لنا من الرجوع لهذه القوة القرآنية وما يرافدها من تراث عظيم، وتوجيه أنظار هذا الجيل الغضّ إليه، لأن في العودة إلى تراثنا القرآني واللغوي والعلمي القديم توسيع لنفوذ العربية، وإنّ هذا التراث هو المؤسسة الأصلية والكفيلة في صناعة هوية لغوية حضارية عربية إسلامية تقينا من الغزو الغربي ثقافيا ولغويا. وليس المقصود بالعودة إلى التراث الاحتجان والتعصب له، وإنما المقصود بالعودة إليه إحيائه وتقريبه وتفعيله مع الجديد ليخرج من محدوديته وغربته إلى حياة الاتصال ولحوار المنضبط. وإلا فنحن سائرين في سير ظلماء، وقد يرمي بنا هذا السير من دون شك في مستنقع الذلّ والهوان.

فكيف نتخلى عن نصر العربية وهي وسيلة نصرنا، لا سيما أنّها من بيت طهر ونبوّة، فمنذ عهد أبينا اسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن كأول نبيّ تكلمها، "لأنّ الله تعالى لما فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، وفطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين."[23] –وهذا على أرجح أقوال العلماء والمفسرين– فـ:"زادها نصاعة وبراعة وكرما، وأسلمها إلى أبنائه من العرب وهو على الحنفيّة السمحة دين أبيهم أبراهيم فظلّت تتحدر على ألسنتهم مختارة مصفاة مبرّأة، حتى أظلّ زمان نبيّ لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلّم، فأنزل الله بها كتابه بلسان عربي مبين." [24]=

نستطيع أن نقول أن العربية لغة مفضّلة:

=وعلى هذا النّسب الشريف والقوي ولأنها لغة القرآن أفضل كتاب، ولغة أفضل الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلّم، ولغة دار الحيوان دار القرار، وعلى هذه المزايا فهي لغة مفضّلة وهذا التفضيل ليس فيه قدر قلامة ظفر من الإيديولوجية والأنانية، لأن هذا التفضيل ورفع الدرجات هو سنّة أرادها الله سبحانه وتعالى في كونه، لِيَتِمَّ أمر قوام هذا العالم، بين بني الإنسان وبين بني الحيوان، وفي الأطعمة، والأشربة والأزمنة والأمكنة، والأوقات، والجهات، وغير ذلك وحتى بين الرسل، يقول تعالى :"تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ"(البقرة: 253)، ويقول سبحانه عن الأطعمة :"وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ"(الرعد:4)، وحتى في القرآن العظيم نفسه الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى، هناك آية أعظم من آية، وآية أبلغ من آية،

–غير أن هذا الموضوع الأخير كان معترك الأقران، ومن أراد التفصيل فعليه بكتاب "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السّيوطي– وبالتالي فليس من الموضوعية أن نكتم هذه الحقيقة الصادقة.

السرطان الآكل الذي علق بنفوس العرب فزاد في تلميع الهجين اللغوي:

فمهما كانت نوعية المضايقات والتحدّيات التي تواجه العربية في الظرف الحالي، فيمكن مقاومتها، إلا شيئا وحيدا علق بنفوس المجتمع العربي بكامله يصعب معالجته، وهو هذا الداء الدفين المجخّي في قلوب العرب المتمثّل في شعورهم بعقدة النقص والتضاءل والانهزام تجاه الحضارة الغربية في كل شيء، وخاصة اللغة، والنفس إذا احتملت الذلّ وأسلمت للقهر وتمكّن منها واستفحل فإنها فيما بعد لا تألم السّلخ والتمزيق، بل ستستعذبه، وهذا الذي جعل النموذج الأروبي يسيطر ويقوى على العقلية العربية لأنه وجد عقولا فارغة فأوى إليها، ونفوس خالية فاستوطن فيها، وقلوب خاوية فتمكّن منها.

ثم إننا نحن العرب لنا موائز وفرائد تخصّنا؛ والتاريخ شاهد على ذلك، فمن يستطيع أن ينكر أنه لولا القرآن الكريم ماكنت هناك علوم للعربية، هب أن القرآن ما نزل ومحمد صلى الله عليه وسلم ما أرسل إلى يوم الناس هذا، هل تكون العربية لغة رسمية في دساتير اثنين وعشرين دولة عربية، طبعا لا.

شرط واحد للنهوض بالعربية ما إن تمسّك به العرب والمسلمون:

فالحقيقة الضخمة أنه لولا القرآن ما كان هناك وجود علوم للعربية، ولا حتى وجود العربية نفسها، لماذا؟ هذا السؤال يجيب عنه ابن خلدون رحمة الله عليه، حين يقول:"أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك: أنّهم لخلق التّوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمّة والمنافسة في الرئاسة؛ فقلّما تجتمع أهواءهم. فإذا كان الدين بالنبوّة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدّين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس." [25]

والفهم المقابل لنص ابن خلدون أن غير العرب لما كانوا متلطّفين وعادلين مع بعضهم بعضا استطاعوا أن يرتقوا ويصلوا إلى الريادة العالمية علميا من دون قرآن. أما العرب فهم قوم أذلاّء من دون قرآن، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا دولة مرهوبة الجانب عصيّة على أعدائها، والسبب كما ذكره ابن خلدون، فلما كانت في ثقافة العرب قوة قرآنية" اتصل الدين باللغة اتصالا وثيقا في العصور الإسلامية كلّها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة، بجميع الشواهد اللغوية، وتقعيد اللغة، باعثا دينيا هو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن، وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية على المزج بين المعارف الدينية واللغوية، في الكتاتيب والمساجد والمجتمعات، ثم في المدارس المنظمة فيما بعد، ومن ثم كان اللغوي غالبا رجل دين، ولا ترى عالما من علماء اللغة القدامى، إلا كان مقرئا، أو مفسرا، أو محدثا، أو متكلما، أو فقيها." [26]

فشجاعة العربية وسماحتها في العصر الجاهلي ولدت من الشجاعة الفطرية للإنسان العربي* الذي كان مستقره في شبه الجزيرة العربية في أقوم حال وأعدله، فالعرب عاشوا في هذه الخارطة، يقول الجاحظ عنهم "لم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغناء الذي يورث البلدة والثروة التي تحدث الغرّة، ولم يحتملو ذلا قطّ فيميت قلوبهم، ويصغّر عندهم أنفسهم. وكانوا سكّان فياف وتربية العراء، لا يعرفون الغمق ولا

اللثق (فساد عن كثرة الندى)، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن، ولا التخم،(الوباء) أذهان حديدة، ونفوس منكرة." [27] فالعربية أخذت حظّها كذلك من نفوس العرب وبيئتهم، ولما جاء الإسلام واختلط العرب بغيرهم لعالمية الرسالة، كانت القوة القرآنية هي التي حفظت للعربية شجاعتها إلى يوم الناس هذا، وهي أمّ القوى.

فلا مناص من رجوع المجتمعات العربية للتمسك بالقوة القرآنية ليحصل الملك والولاية للعرب والعربية، ونتخلص من رعونة الأميّة وعيّ اللسان ومرارة الشعور بالإحباط، فتصفّى النفوس وتهذّب الأرواح وتنشط العقول من الركام الذي علق بها أيام القطيعة والجفاء عن تعاليم القرآن واقتناء هذا التراث العظيم الزاخر فكرا وممارسةً.

فإن تحقق هذا الشرط لنصرت العربية من غير ناصر، عندها فلا خوف على العربية من مزاحمة اللغات وثورة المعلومات، وسلاح الانترنت وغير ذلك من تضخيم المسؤليات بالتكهنات، فالمطلوب من كل عربي ومسلم أن يحمل فكرة واحدة تجاه العربية وهي إصلاح من لسانه بالتعلّم والتمرين فقط. فالحلّ بأيدينا جميعا لمستقبل العربية، ولا يقع قلم التكليف هنا على باحث أو أستاذ أو مسؤول أو غير ذلك، بل تقع على الجميع من الطفل في مدرسته إلى الرئيس في قصر حكومته.

ولعلّ في هذا الذي ذكرت بُلغَةً وكفاية في توضيح مستقبل العربية، بين شهادات النقل وتنبوءات العقل، إذً فالنهضة اللغوية مشروطة بالتمسّك بحبل كتاب الله المتين، وإحياء تراثنا الثمين، والصبر على مستجدّات قوادم السنين، وإذا تقاعسنا ولم نستعد لحجم هذه المسؤولية بقينا أمّة مضعضعة، عرضةً للتقليد والتأثر برجيع الحضارة الغربية، وبقينا أمة مغلوب على أمرها في كل شيء، لم يبق لها إلا نسج أكفانها وحفر أجداثها.

مرجع الإحالات:

[1] **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**:د، نفوسة زكاريا سعيد، ط1، 1964، دار نشر الثقافة بالاسكندرية، ص:18.

[2] **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**:أ، أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2006، ص:143.

[3] **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص123.**

[4] **أباطيل وأسمار**: لأبي فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 2005، ص:125، 126.

[5] **الإيضاح في علل النحو: لأبي القاسم الزجاجي،** (ت:337ه) تحق: مازن المبارك، دار النفائس بيروت، ط3، 1979، ص:70.

[6] **انظر دلائل الإعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي،** بتحقيق وقراءة: أبي فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط3، 1992، ص:9.

[7] **لسان العرب:** للإمام ابن منظور الأنصاري، حققه:عامر أحمد حيدر، راجعه:عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005، ج1، ص:23، 24.

[8] **أباطيل وأسمار، ص:9.**

[9] **شجاعة العربية –أبحاث ودروس في فقه اللغة–**:أ، سالم علوي، 2006، ص:6، 7.

[10] **انظر:اللغة العربية في العصر الحديث–قيم الثبوت وقوى التحول–**:د، نهاد الموسى، دار الشروق، عمان، ط1، 2007، ص:15.

[11] **المرجع نفسه،** ص:164، 165.

[12] **المرجع نفسه،** ص: 165.

[13] **جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر**:د، عادل سليمان جمال، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د، ت)، ص:1197.

[14] **اللغة الشاعرة:** لعباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1995، ص:6.

[15] **جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر**، ص:1196.

[16] **انظر: موقع شبكة صوت العربية:www.voiceofarabic.net** ، الاقتباس المثبت أعلاه ترجمه: أ، خالد ملوك.

[17] **انظر: العربية والإعراب**:د، عبد السلام المسدي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص:63، 64، 65.

[18] **أباطيل وأسمار**، ص:192.

[19] **انظر: الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهصة إلى عصر العولمة**:د، نهاد الموسى، دار الشروق، عمان، ط1، 2003 ، ص:238، 239.

[20] **البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية:** أ.د، فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط2، 1999، ص:65، 66.

[21] **ديوان الإنشاء**:السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتنقيح: د، ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002، ص:343.

[22] **اللغة العربية في العصر الحديث– قيم الثبوت وقوى التحول–**، ص:47.

[23] **انظر: رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979، ج3، ص:191.

[24] **أباطيل وأسمار**، ص:346.

[25] **مقدمة ابن خلدون**، طبعة جديدة مصححة ومنقحة، دار الفكر، بيروت، ط1، 2006، ص:163.

[26] **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية:** لعبد المجيد عابدين، القاهرة، 1951، ص:102.

* معلوم أن مواقف العلماء حول قضية نشأة اللغة متعددة، ولكنني أخذت برأي ابن جني (ت:392هـ) لعلميته، والذي يرى فيه بفطرية نشأة اللغة العربية، فعبّر عن هذه النظرية بقوله:"سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد"، انظر: الخصائص، لابن جني، في باب:"إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، ج2، ص:164. ومن المحدثين الذين يرون بفطرية نشأة اللغة، عباس حسن في بحثه القيّم:"خصائص الحروف العربية ومعانيها"، نشره سنة 1978، وكذلك فخر الدين قباوة يرى بهذا الرأي، في كتابه الرائع"الإقتصاد اللغوي في صياغة المفرد." انظر فصل:"الإقتصاد واللغة."

[27] **رسائل الجاحظ**، ج3، ص:216، 217.